(١)

التسامح الديني
وضرورة تفويت الفرص
على أعداء الدين والوطن

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم:{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.

وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، زكَّاهُ ربُّه بقوله : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، **وبعـد:**

فإن من أبرز القيم الخُلُقية والإنسانية التي حرص القرآن الكريم على تأصيلها قيمة التسامح ، فقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، وقد رسَّخ الإسلام لهذه القيمة في قلوب أتباعه ، فبيّن أنَّ الأنبياء إخوة ، نؤمن بهم جميعًا ولا نفرق بين أحد منهم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، ويقول سبحانه:{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، وأكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على ذلك بقوله: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) .

إن الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى التواصل والتعايش والتسامح والتراحم بين أتباع الديانات كافة ، وجعل العلاقة بين الناس قائمة على أساس التعارف والتآلف ، فقال سبحانه :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، وقال (صلى الله عليه وسلم): {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى}. فالناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وعقائدهم إخوة في الإنسانية ، تنشأ بينهم علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية قوامها التعارف والتآلف وتبادل المنافع والمصالح المشتركة ، ونلمح هذا من خلال تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع مجتمع المدينة ، حيث أسس نظامًا عامًّا هدفه التعايش السلمي بين الناس جميعًا على أسس إنسانية خالصة.

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلام وارتفعت رايته ؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسان وبما جبلت عليه العقول السليمة من حب الخير للناس أجمعين، فليس في ثقافة الإسلام ولا تعاليمه ما يدعو إلى العنف والكراهية ، يقول الحق سبحانه: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}، للناس كافة على اختلاف عقائدهم وألوانهم ولغاتهم ، فهي دعوة للتعايش والتآلف وحسن المعاملة مع الخلق.

ومن أبرز صور التسامح الديني في الإسلام أن كفل للجميع حرية الاعتقاد وعدم

الإكراهِ علَى الدخول في الإسلام ، قالَ تعالى :{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}، وقال (عز وجل) :{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، ويقول سبحانه : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}.

وقدْ طبَّقَ النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وأصحابُهُ (رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ) هذَا الأساسَ تطبيقًا عمليًّا، فلمْ يُكرهُوا أحداً علَى الدُّخولِ فِي الإسلام ، ولَمْ يهدمُوا لأحدِ كنيسةً أوْ صومعةً أوْ أيَّ مكانٍ للعبادةِ، بَلْ كانَتْ أمكنةُ العبادةِ مُصانَةً عندَ المسلمينَ.

ولم يكتف الإسلام بحرية التديّن ، بل نجده قد ألزمنا بعدم السب أو التعرض لأي من أصحاب الديانات الأخرى ، أيًّا كان مصدر هذه الديانات ، بما يسيئ لهم أو لمعتقدهم ، فقال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

ومن أبرز صور التسامح الديني في الإسلام دعوته لضرورة التعايش مع الآخر على أساس المواطنة ، فحينما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد بها مزيجا إنسانيًّا متنوعًا فوجد بها يهودًا توطنوا ، ومشركين مستقرين ، فلم يتجه تفكيره (صلى الله عليه وسلم) إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة أو الخصام، بل قَبِلَ ـ عن طيب خاطر ـ وجودهم وعاهدهم على حرية الاعتقاد والأمن والأمان ، والدفاع المشترك عن الوطن ، ووضع صحيفة المدينة التي تعد أفضل أنموذج في فقه التسامح الديني، وهي وثيقة تشهد بحكمته (صلى الله عليه وسلم) في إرساء مبدأ التسامح والتعايش بين جميع طوائف البشر ، من خلال المبادئ التي تحقق العدالة

المطلقة ، والمساواة التامة بينهم جميعًا، حيث جعل لغير المسلمين ما جعله للمسلمين من الحقوق والواجبات ، وقد اشتملت هذه الوثيقة على (أَنَّ يَهُودَ المدينة أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهُمْ ، وَأَنْفُسُهُمْ، وكذا كل العهود والمواثيق والمكاتبات التي عهد بها (صلى الله عليه وسلم) إلى الرؤساء والملوك أصَّلَتْ للتسامح الديني والتعايش السلمي.

وكذلك تُعدُّ زيارة نصارى نجران لمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومقابلته (صلى الله عليه وسلم) ومحاورته لهم أنموذجًا رائعًا للتسامح الديني لا مثيل له ، فلما حانت صلاتهم سمح لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بإقامة صلاتهم في مسجده المبارك (صلى الله عليه وسلم)، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (دَعُوهُمْ)، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ.

كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استقبل وفدًا من نصارى الحبشة ، وأكرمهم بنفسه وقال: (إِنَّهمْ كَانوا لأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ).

وجدير بالذكر أن العدل والإنصاف ، وحسن معاملة الناس جميعًا من أهم ركائز التسامح الديني ، فالإسلام قَدْ حفظَ حقوقَ الآخرينَ وصانَهَا، ونصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ شاهِدَةٌ علَى هذَا، فقد جاءت آيات القرآن الكريم تأمر بالعدل والإحسان وتحثُّ عليهما وتدعو إلى التمسك بهما ، يقول تعالى: {إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}، ويقول تعالى:{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}، فالمسلم مطالب بأن يحقق العدل مع جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وألا يظلم أحدًا من الناس أبدًا ، بل إن الإسلام يأمرنا ببرِّ كل من لا يتعرض لنا بأذى ،

فقال سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

وليس أدل على ذلك من أن ينزل جبريل الأمين (عليه السلام) على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) بآيات تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ببراءة يهودي اتهمه مسلم بالسرقة ، فقال تعالى : {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}.

وتُعد الوثيقة العمرية التي أبرمها الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع أهل إيلياء صفحة مضيئة في تاريخ الحضارة الإنسانية على العموم ، فقد أعطاهم فيها أمانًا على أنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصُلبانهم، وقضى لهم بأنه لا تُسكَن كنائسهم، ولا تُهدم ولا يُنتقص منها، ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضام أحد منهم، و من أحب أن يبقى على دينه فعلى المسلمين أن يبلغوه مأمنه دون غدر أو خيانة، ففي هذا العمل نبل وشهامة وتسامح واحترام للأديان الأخرى.

هذا هو منهج الإسلام الذي يدعو إلى التسامح الديني والحفاظ على الآخرين وحقوقهم وحرماتهم ، وتأمين المجتمع وقيمه ، ويحافظ على الأصل الذي على أساسه تُبنَى المجتمعات ، وهو التعارف والتآلف والتعايش والتسامح .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أخوة الإسلام :

إن من أهم عوامل الحفاظ على التسامح الديني هو الاصطفاف صفًّا واحدًا لمواجهة المتطرفين والتصدي لهم بحزم ، ومحاربة أفكارهم الهدامة التي تؤدي إلى الفرقة والتنازع وضياع الوطن.

ومما لا شك فيه أننا في هذه الأيام في حاجة ملحة- أكثر من أي وقت مضى - إلى تعميق وترسيخ قيم التسامح الديني والانتماء الوطني ، وإعلاء المصلحة الوطنية على أي مصلحة أخرى ، والوقوف بحسم في وجه من يضر بالوطن ، أو يتآمر مع الغير ضد مصالحه ، والتحذير من المحاولات التي تعمل على إثارة الفوضى والشغب والفتن ، والعمل على تفكيكها فذلك أمر واجب على كل وطني شريف ، من باب التعاون على البر والتقوى الذي أمر به الإسلام ، قال تعالى:{.... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}. فقد علمنا الإسلام منهجًا واضحًا لوقاية الأمة من القلة التي تفسد ولا تصلح ، وتهدم ولا تبني ، وتخرب ولا تعمر ، قال تعالى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

هذا وقد نهى ديننا الحنيف عن ترويع الآمنين أو التعرض لهم بأي سوء ، فكل الدماء حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة ، لا تمييز في ذلك على أساس الدين أو اللون أو الجنس ، فكل أنواع الأذى مرفوضة ، حيث قال (صلى الله

عليه وسلم) : (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ) ، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى لَيْلَى قَالَ :حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيّ (صلى الله عليه وسلم) فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا).

إن رسول الإنسانية الأعظم (صلى الله عليه وسلم) الذي وقف لجنازة يهودي احترامًا لإنسانيته جعل من نفسه خصمًا لكل من يؤذي أحدًا من غير المسلمين ، مواطنًا ، أو معاهدًا ، أو ذميًّا ، في ماله أو نفسه أو عرضه ، حيث قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، بل وصل الأمر إلى أن كل من خالف مبادئ الإنسانية السوية وتعاليم الإسلام السمحة واستباح دم إنسان شريك له في الوطن لمجرد الاختلاف الديني فإن ريح الجنة محرم عليه ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا ليوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا).

ونؤكد أن الإسلام برئ من آفة الفكر التكفيري المتشدد الذي يدعو لسفك الدماء البريئة بغير حق ، أو يدعو إلى الإفساد في الأرض ، اتباعًا لأناس جُهَّالٍ ضلُّوا وأضلوا بغير علم، أو أصحاب مصالح خاصة يوظفون الدين لمصالحهم وأهوائهم ومطامعهم السلطوية، ولن يجني هؤلاء إلا حسرة وندمًا وسوء عاقبة في الدنيا والآخرة. ومن ثم فإن مواجهة هذه الفئات الضالة وردعها عن ترويع الآمنين وتدمير البلاد ضرورة دينية وواجب وطني ، حتى لا يعيثوا في الأرض فسادًا.

نسأل الله تعالى أن يحفظ مصرنا من كل مكروه وسوء.